الفصل الخامس

معالم نظريّة تربويّة إسلاميّة

obeikandl.com

العالم كلّه – على مستويات متعددة يشهد تحولات كبيرة، ومنعطفات حادة تشمل ميادين الثقافة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والعلاقات الدوليّة، وكل هذه التحولات الهامة تنبثق عن تصور الأمم لإنسانها وغاياتها ونظرتها الكليّة للوجود الَّذِي تعيش فيه وأهدافها في الحياة، وتحاول أن تعد إنسانها بحيث تأهله لأداء الدور الَّذِي يحقق غاياتها. السمة المميزة للعصر الَّذِي نعيشه هِيَ سمة تفجر المعلومات والمعارف وتراكمها، وتنوّع الوسائل التقنية التي تعتمد على المعرفة العلميّة المتقدمة، وتعدد وسائل الاتصالات. والأمّة التي تتأخر في تربية وإعداد إنسانها وتمكينه من الاستخدام الأمثل لهذه المعطيات لن تستطيع أن تكون الأمّة المسخرة لغيرها، عن رضي وطواعية، أو عن كراهة وإباء، بقطع النظر عن ماضيها وجذورها وتراثها.

ويقدر الخبراء أن المعرف العلميّة المتنوّعة والتي ينتظر أن تظهر خلال العقد الَّذِي بدأ هذا العام، ستضاعف حجم التراكمات المعرفيّة أضعافا كثيرة. وتنظيم هذه المعلومات ومعرفة أفضل طرق استخدامها في تطوير إمكانات الأمم في مجالات الحياة ونظمها المختلفة سيكون هُوَ الميدان الأول للسبق والتفوق، والمعيار الأساس للتقدم والتخلف.

لقد اختزلت أعمار الأمم، وتصارعت دورات تداول الأيام بين الناس، وها نحن نشهد نشوء وسقوط الأمم والحضارات، والنظم والتكتلات، والمنظومات

الفكريّة والمعتقدات في فترات قصيرة، لا تتجاوز فترة عمر عادي لإنسان واحد. وما نبأ تلك الزلازل الفكريّة الهائلة والتغيرات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة في الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقيّة عنا ببعيد، وكذلك المراجعات الجادة التي تتم في أمريكا وأوروبا الغربيّة واليابان لمنظوماتها الحياتيّة المختلفة، ومحاولات فحص تلك المنظومات كلها والتأكد من سلامتها، وإعادة رسم خرائط كثير من المسلمات الفكريّة والثقافيّة والتربويّة، وجدولة موضوعات البحث الاقتصاديّ والتربويّ والأمني والسياسيّ، بعد أن كشفت تلك التغييرات الحادة عن أزمات كبيرة في الفكر، وأنواع من الفشل الثقافيّ، والاختلال في النظم؛ مرد معظمه إلى اضطراب العقول في فهم الإنسان والحياة والكون، أو إساءة فهم جدليّة الغيب والطبيعة والإنسان، كما يعبر البعض. هذا الفهم الَّذِي كان أول مَا بناه الإسلام، وأرسى دعائمه بأحسن صورة، وأتم شكل؛ وإن اضطرب في أذهان المسلمين بعد ذلك.

إن سنة التدافع الحضاريّ بين الناس قد أخذت مسارا آخر، فأثر ذلك في كثير من مفاهيم الأمم المتعلقة بالصراع، والقوة والضعف، والتقدم والتخلف، والفقر والغنى؛ فاهتزت مفاهيم كثيرة لدى الأمم من حولنا وعلى ضوء ذلك أعادت أمم كثيرة النظر في سلم أولويّاتها، وفي مقدمتها إعادة النظر في نظمها التربويّة، إدراكا منها، لفشلها في تحقيق إنسانيّة الإنسان بالرغم من تقدمها الهائل في بناء وسائله وأدواته الماديّة.

ها هُوَ العالم يعلن عن موت ودفن أهم بديل قدمته الثورة الصناعيّة الغربيّة لتحقيق إنسانيّة الإنسان، ومعالجة أزمة النظام الرأسماليّ، في النصف الأول من هذا القرن، وهو البديل الماركسي، الَّذِي سحر أعين الناس واسترهبهم قرابة ثمانية عقود من الزمن، وإن كانت نخب اليسار في العالم العربيّ والإسلاميّ، لا تزال ترفض تصديق أسماعها وأبصارها وعقولها، فإن ذلك لا يؤثر على العالم الذي نفض يديه من تراب الماركسية، منذ أن بدأ غورباتشوف برنامجه التغييري. ومن يدري؟ فقد يعيش منا من يعيش، حتى يسمع قادة من الغرب يعلنون عن فشل أنظمتهم، والبدء بتقديم بدائل جديدة من داخل أو خارج المنظومة الفكريّة الغربيّة، فأين موقع الأمّة الإسلاميّة، وفي مقدمتها شعبنا العربيّ من هذه التغييرات، التي تحدّد قسمات الحضارة الإنسانيّة وصورة عالم المستقبل الَّذِي لم يعد يسمح للضعفاء حتى بحق الانكفاء على الذات أو اعتزال الحياة؟

المسلمون شاءوا أم أبوا سوف تؤثر فيهم هذه التغيرات، ولن تسمح لهم وسائل الاتصال الثقافيّ والحضاريّ والإعلاميّ الجديد بالاحتفاظ بتميز، أو خصوصيّة دينيّة أو قوميّة أو إقليميّة، مَا لم يسارعوا إلى إعادة النظر في منظوماتهم الفكريّة والثقافيّة والتربويّة؛ ليعيدوا بناء الإنسان المسلم عقلا وقلبا ونفسا وقلبا وجسما، فيعود إلى تفوقه وفقهه الأكبر، الَّذِي جعل الواحد من أسلافه يعدل العديد من الذين كفروا، بأنهم قوم لا يفقهون، وهو يفقه، فهو متفوق بعقله ووعيه وفقهه وثقافته وجده ومثابرته، لتحقيق سائر مقتضيات الإيمان والتفوق والوسطيّة والخيريّة والشهادة على الناس والخلافة في الأرض، فإذا تغير الموقف هبط وعي المسلم وتغير عقله ونفسه، وفقد فقهه الأكبر وتحولت قيم الإسلام ومفاهيمه في نظره إلى مجموعة من الرسوم والأشكال المتحركة الباهتة، واستطاع الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا أن يتفوقوا عليه ويستذلوه وإن كانوا عن الآخرة غافين، فتلك السنة من سنن هذا الوجود ولن تجد لسنة الله –تبارك وتعالى– تبديلا.

إن العالم الإسلاميّ يمور بالتفاعلات، منها مَا ظهر ومنها مَا بطن، ولكن سائر تلك التفاعلات قابلة لأنّ تحول باتجاه الإصلاح واليقظة والنهضة ودخول الدورة الحضاريّة، ويمكن أن تتحول إلى نوع من الانفجارات الذاتيّة والانشطارات والتمزقات التي تمد في عمر التمزق والضعف والفقر والتخلف والهوان، لا في الدنيا وحدها، بل في الآخرة كذلك. والقيادات الفكريّة والثقافيّة والتربويّة هِيَ

الأقدر على إحداث النقلة بهذا الاتجاه أو ذاك، فإن استطاعت هذه القيادات أن تعي دورها وتؤدي دورها وتؤدي واجبها في تصحيح المسار وإعادة بناء نسقها الثقافيّ التربويّ والاجتماعيّ، وتقديم مشروع حضاريّ متكامل منبثق عن مصادر معرفة الأمة، مستلهم لشخصيّتها، محدد لمفاهيمها وقيمها تكون هذه القيادات الفكريّة قد أدت واجبها واستطاعت الأمّة أن تسترد عافيتها، وتحقق أهدافها؛ وإن كانت الأخرى، فإن أمامنا سنوات عجافا جديدة، قد تمتد لفترات طويلة من التخبط والضياع، في ظل تلك الخطط الماكرة التي تبرع المتفاهمون الكبار بوضعها لمستقبلها، بعد أن عجزنا أن نخطط لأنفسنا، والتي تؤهل العالم الإسلاميّ، دول أميركا اللاتينية، وبعض البلدان الأخرى للاستمرار في تخلفها وبقائها مصادر أساسيّة للخدمات، أساسيّة للخامات والمواد الأولية، وأسواقا للصناعات، وميدانا للحروب الصغيرة التي يضمن الصناعيّون الكبار بها استهلاك مخزون الأسلحة التقليديّة واستمرار صناعتها وتجريبها، وتأديب القيادات الإقليميّة الصغيرة بعضها بأيدي البعض الآخر، والحيلولة دون ظهور قوى جديدة تؤثر على خطط الأقوياء التقليديّة تلك.

إن أزمة أمّتنا التربويّة هِيَ أخطر انعكاسات أزمتها الفكريّة على حياتها، ولقد تراجعت سائر المشروعات التي قدمت في عالمنا الإسلاميّ للنهوض والبناء الحضاريّ دون تحقيق أهدافها بما فيها محاولات التغيير ضمن الإطار الإسلاميّ نفسه. ولقد آن الأوان لنمتلك الشجاعة الكافية لمصارحة أنفسنا بذلك ولنراجع أنفسنا، فمع كل المتغيرات لا يزال شيء من وقت للمراجعات الجادة المخلصة لسائر أطروحاتنا الفكريّة والتربويّة عند توافر الجدية والإخلاص. كما آن الأوان ليدرك الجميع وبخاصّة أصحاب الفكر والثقافة والتربية، بأنه لا أحد وحده يملك الحل، وأنه لا بد من تضافر الجهود وتكاتف العقول وتعاون فصائل الأمّة المختلفة على معالجة أزماتها، وحل معضلاتها، أمّا الحلول الأحادية، فئوية كانت

أو فرديّة فما عادت قادرة على مواجهة أزماتنا الفكريّة والثقافيّة والتربويّة.

إن جميع الأطروحات التي قدمناها، خلال العقود الماضية من خلال المشروع الدنيويّ الَّذِي قدم مشروعاته وحلوله الفكريّة المستوردة؛ فشلت النظريّات التربويّة التي حاولت صناعة الإنسان وفق أهداف ومضامين غربيّة وغريبة عن نسقه الثقافيّ وميراثه الحضاريّ، وفشلت الحلول الاشتراكيّة والرأسماليّة في المجال الاقتصاديّ لمجافاتها لمعادلة الأمّة النفسيّة والاجتماعيّة وكذلك لمصادمتها لفطرة الإنسان، وفشلت مشروعات التحديث والتصنيع والتقنية بخمسياتها وعشرياتها؛ لأنها توهمت أن الاستيراد والتكديس الحضاريّ يغني عن الاستنبات الحضاريّ، ولم تنجح إلا في تكريس التخلف وتنمية الروح الاستهلاكية وشيوع ظاهرة الاستبدال والعجز عن الإيداع والصيانة.

وعلى مستوى المحاولات الإسلاميّة أخفقت تجارب كثيرة، ولم تبلغ المدى المطلوب ولم تحقق الأهداف المرجوة، ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلى الخلل في البناء الفكريّ والثقافيّ والتربويّ، وغياب المراجعة والنقد والتقويم الدائم، لتحديد مواطن الخلل واكتشاف أسباب التقصير ومواطن القصور، وغلبة العقليّة الزرائعية التبريرية، والإلقاء بالتبعة على العالم الخارجيّ، وتحكيم عقليّة التقليد ونفسيّة الجبر وتحكمهما، مما أشاع لونا من الجبريّة والتواكليّة أدت إلى الشلل، والى نفي احتمال الخطأ عن الفكر والعمل مَا دام منسوبا إلى الإسلام أو التراث أو العلم الغربيّ، وإلغاء أيّة محاولة للتقويم والمراجعة، ومن ثم إعفاء الذات من المسئوليّة والمحاسبة بحجة أن النتائج على الله.

وخلاصة القول أن الأمّة عندما سادها العجز عن إبداع حلول لمشكلاتها بسبب إصابتها في عالم أفكارها انسحبت إلى ملاجئ التاريخ والتقليد، وجاء هذا التقليد باتجاهين: الأول، تقليد الآباء والأجداد والافتخار بإنجازهم وتراثهم. لتغطية العجز ومركب النقص أمام الحضارة الغربيّة المعاصرة واعتبار الماضي،

أي ماض، تراثا يستحق الدفاع عنه؛ ليتحقق الدفاع عنه. والثاني، تقليد الغربيّين والتوهم أن النهوض يمكن أن يتحقق باستيراد البديل الجاهز والأسهل، وكلا المشروعيّن كان عاجزا عن النهوض بالأمّة وإن كانت الدوافع والمظاهر والمسائل مختلفة، ولكن الحقيقة كانت واحدة وهي سيادة عقليّة التقليد، سواء أكان تقليدا تاريخيّا أو تقليدا جغرافيّا، وعلى الرغم من أن ساحات الصراع الحضاريّ مع الغرب في ظاهرها كانت في المجال السياسيّ أو العسكري أو الاقتصاديّ أو التقني، إلا أن ميدان

الصراع الحقيقي كان عالم الأفكار والعقائد والقيم، وما تنتجه من نظم وأنماط سلوك وأفعال تربي الأمّة عليها. وكان الفكر الإسلاميّ بما يمتلك من تراث ثقافيّ ورصيد حضاريّ محور هذا الصراع، إلا أن ذلك لم يحقق شيئا على أرض الواقع بسبب حالة العجز العقليّ والتقليد الجماعيّ، فأدى ذلك إلى ردود أفعال تراوحت بين الرفض المطلق للحضارة المعاصرة بكل تفاصيلها أو القبول المطلق لها دون القدرة على التمييز في حالة الرفض والقبول معا.

وعندما نحاول أن نقدم نظريّة أو معالم لنظريّة تربويّة إسلاميّة، ونحن في محاولتنا هذه لا نستطيع أن نتجاهل الواقع المعاصر، ولا نستطيع أن نتجاهل التراث الإنسانيّ القائم، كما لا نستطيع أن نتجاهل تراثها، وإنّما نحاول أن ننطلق من ذلك كلّه نحو بناء نظريّة تربويّة إسلاميّة يمكن أن يربى الإنسان المسلم عليها، ويمكن أن يكون إنسانا قادرا على مواجهة أعباء الحياة القادمة.

ولعلّ مَا ينفع في هذا المجال أن نُذَكِّر تربويّينا وقادة الفكر فينا بأننا نحتاج لكي نخدم هذه النظريّة ونشق الطريق نحولها إلى:

أولاً: دراسات مسحية لنصوص القرآن الكريم والسنة النبويّة الشريفة المتعلقة بالقضايا التربويّة والتعليميّة.

ثانيًا: دراسة مقارنة لأساليب التربية والتعليم قبل الإسلام وبعده، وأهم
التغيرات في أساليب التربية في الصدر الأول والعصور اللاحقة وأهميّة هذه التغيرات.

ثالثًا: دراسة مقارنة لغايات التربية الإسلاميّة وأساليبها مع غايات وأساليب الأمم المتقدمة، وأساليب القصور التطبيقيّ في المدرسة التربويّة المعاصرة.

رابعًا: الآثار السلبيّة والإيجابيّة للمفاهيم الكلاميّة والشكليّة الفقهيّة على علاقة الأساليب التربويّة الإسلاميّة وآثارها العمليّة على الغايات الإسلاميّة التربويّة.

خامسًا: مَا أثر غياب الدراسات التقنية والاجتماعيّة وقصور أساليب ووسائل التربية الإسلاميّة في توجيه الناشئة، وقصور الأداء والوسائل في التفرقة بين أطوار النمو المختلفة للفرد؟

سادسًا: مفاهيم الحب والرغبة والخوف، والرهبة الماديّة والمعنويّة ودورها في تحقيق الغايات الإسلاميّة العربيّة وبناء الشخصيّة الإسلاميّة القويّة وأهميّة ذلك.

سابعًا: كيف نبني النظريّة والمنهجيّة الإسلاميّة العلميّة للتربية الإسلاميّة في الوسائل، والأساليب المطلوبة لبناء المدرسة العمليّة الإسلاميّة المتميزة في عصرنا هذا؟

ثامنًا: كيف يمكن تقديم مناهج دراسيّة إسلاميّة؟ وما الطريق الَّذِي يمكن أن يحقق التربويّون به وحدة المعرفة الإسلاميّة في التعليم والتربية، وأثر ذلك على الشخصيّة الإسلاميّة والبناء الاجتماعيّ الإسلاميّ؟

تاسعًا: التكرار والمبالغة في سرد الغايات الإسلاميّة مع ضعف الوسائل والضوابط الضروريّة في المجال التربويّ لتحقيق تلك الغايات وأثرها على العقليّة المسلمة.

عاشرًا: العلاقة بين التربية والعلوم السلوكية وأهميّة إدخالها كمصدر ومرجع في مجال العلوم السلوكية لتحقيق الغايات الإسلاميّة التربويّة والتعليميّة.

هذه بعض الملاحظات من إنسان غير متخصص في المجال التربويّ ولكنه واحد من أبناء هذه الأمّة يعيش أزمة الفكر ويعاني من أزمة التربية، ويأمل في جهود المخلصين من أبناء هذه الأمّة أن تصل إلى علاج.